خطوط الصراع القادم في الشرق الأوسط
دراسة حالة العراق وسوريا

حسام محمد بوتاني

باحث سياسي

ملخص

تناقش هذه الورقة خطوط الصراع القادم في الشرق الأوسط، منطلقة من أنّ الحالة الصراعية تمثل امتدادًا لتفاعل متناقضات المنطقة المبنية على أساس (هوياتي) مخترع، جعلها عرضة دومًا للهشاشة والتفاعل، مع إخفاق في شرعية نظمه السياسية، وتمثّل حالتا العراق وسوريا أبرز الحالات بين دول المنطقة، وأكثرها تعبيرًا عن هذا التفاعل، إذ سرعان ما تداعت منظومة الدولة، لتحلّ محلّها فعليًّا سلطة الجماعات العرقية والطائفية، حتى غدت إعادة تشكيل خرائط البلدين على أساس إثني أحد المسلمات المرتقبة.

وترى الورقة أن صراع الجماعات الإثنية المختلفة سيولّد خطوطًا جديدة للصراع، لا تشمل العراق وسوريا فحسب، بل تمتد لتشمل المنطقة كلّها.

Next Lines of Conflict in the Middle East Case Study: Iraq and Syria

Hossam Mohammed Botani

ABSTRACT

The current conflicting situation in the Middle East is an extension of the interaction between the regional contradictions - based on an artificial identity that makes it always fragile- with the failure of the regional regimes' legitimacy and national integration of different components. As such these events prevent the national integration of the region's various actors. Iraq and Syria are the most prominent cases among countries in the region, and the main representatives of such interaction, as state system in both of them quickly has fallen apart and is replaced virtually by the authority of ethnic and sectarian groups. Thus, the reconfiguration of the two countries' political maps on ethnic basis has become a prospective assumption.

The paper attempts to address areas and lines that will represent the new lines of conflict and focuses on the core of conflict in the region, namely Iraq and Syria. Moreover it discusses the implications on both regional and global security.

رؤية تركية
2015 - 15
142 - 129

المنارة للاستشارات
www.m

الشكل دقم (1): التغير الديموغرافي في محافظة كركوك

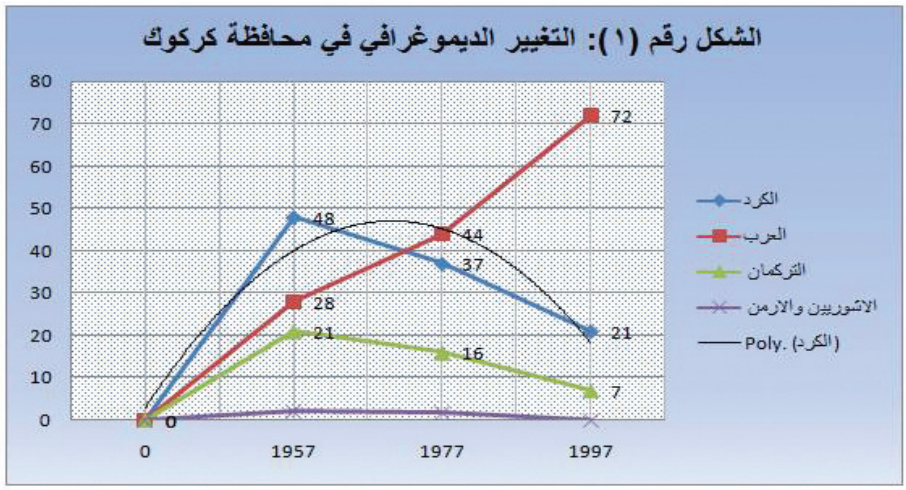

م/ الشكل من إعداد الباحث

سعت دول الشرق الأوسط إلى الحفاظ على خرائطها الناشئة منذ ولادتها في عام 1916، إلا أن سعيها ظل مرتبكًا وغير مستقر، فحدودها وإن رُسخَت إلا أنها بنيت على أساس هوياتي مخترع، تزاوج ذلك مع خلل في شرعية نظمها السياسية وإخفاق الاندماج الاجتماعي، وكان دخول تنظيم داعش مدينة الموصل وتمدده في العراق وسوريا، بمثابة الصخرة التي تصدعت عليها تلك الخريطة، والتي تُعدّ مرحلة متقدمة لتفاعل ديناميكي امتزج مع تداعي منظومة الدولة ومقوماتها، لتعطي الانطباع بأن المنطقة ستجري إعادة تشكيلها على أساس خطوط إثنية.

إن بروز المتغير الإثني (القومي-الطائفي) في معادلة الصراع الدينامي في الشرق الأوسط، بات يمثل البؤرة بين العوامل الأخرى التي تتكامل لتغذي عدم الاستقرار في جيوسياسية المنطقة، بل ويبدو إلى حد كبير أنه المتحكم من بين العوامل الأخرى في إعادة تشكيلها، فالشرق الأوسط الحالي صُمِّم بطريقة جعلته هشًّا وقابلًا للاختراق، ورسمت حدوده بطريقة جعلت عدم الانسجام بين مكوناته السِّمة التي تحكمه، وإذا كان مؤكدًا أن الإقليم يشهد مرحلة تحول تاريخية تجعل من شكله الحالي غير قابل للاستمرار؛ لأنه سيمثل بؤرة توتر تقوض الاستقرار العالمي برمته، فإن من المؤكد أن الحدود القادمة ستكون حدودًا مرسومة على أسس إثنية، سواء كان ذلك بـ(الفدرلة) في المرحلة الأولى، أو بالتقسيم النهائي للمنطقة، أو حتى إعادة صياغة نظام إقليمي فرعي جديد.

كما أن الحالة الصراعية التي تحكم المنطقة منذ عقود وصلت إلى مرحلة متقدمة جدًّا بعد سقوط الموصل بيد تنظيم داعش، وتمدده في العراق وسوريا، إذ إن ظهور التنظيم أفرز واقعًا جديدًا في المنطقة، فالمتغير الإثني تصاعد مع ظهور التنظيم ليتصدر المتغيرات الأخرى

المنارة للاستشارات
www.m

التي تحكم قواعد الصراع فيها، فحركة التنظيم كانت تسير على نحو أفرز خرائط وحركات إثنية جعلت الاتجاهات الإثنية المختلفة في المنطقة تبدو واضحة ومتصدرة للمشهد بشكل غير مسبوق، بحيث بات يؤكد أن المنطقة في المرحلة الأخيرة من إعادة تشكّلها، وعلى نحو جديد تكون محكومة بجيوإثنية ارتسمت خلال هذا الصراع.

وبالنظر إلى الخريطة يبدو أن مرحلة انتهاء تنظيم داعش لن تكون المرحلة الأخيرة للصراع في المنطقة، بل يبدو أنها ستكون أمام سيناريوهات مفتوحة من الصراع الذي سيتحكم بمستقبلها في مرحلة ما بعد داعش، فالجيوإثنية التي ترسخت بشكل كبير في مرحلة التنظيم، ستترتب عليها محاولات لإعادة تشكيل المنطقة بوصفها خيارًا قابلًا لإحلال الاستقرار في المنطقة، بيد أن تطور الصراع إلى هذه المرحلة سيواجه تحدّيًا حقيقيًّا متمثلًا في تلك الخطوط المفعمة بالتنوع الإثني التي تعد خطوطًا غير حاسمة، إذ لا يمكن حسم عائديتها إلى أيّ كتلة إثنية، هذه الخطوط ستغذي استمرار الصراع الإثني المستقبلي حتى ما بعد التشكيل، وتقرير الجماعات الإثنية لمصيرها، ويفاقم ذلك ارتباطها بعنصر الطاقة، وهو ما سيجعل من استقرار المنطقة المنشود معرضًا باستمرار للعطب.

وبالنظر إلى خريطة الصراع الذي يتحكم في المنطقة فإن مثل هذه الخطوط ستكون ماثلة بشكل واضح في الصراع العراقي، وبأقل منه درجة في سوريا، والتي ستترك تداعيات على مستقبل المنطقة كلّها.

أولًا: العراق

يشكل العراق بجغرافيته القائمة، حالة فريدة للتنوع الإثني من حيث تنوعه القومي والديني والطائفي، ويرسم لوحة فسيفساء اجتماعية معقدة جعلته يمتلك عمقًا تؤثر الأحداث الداخلية فيه في الأمن الاجتماعي لسائر دول الجوار والمنطقة[1]، وقد نشأت فيه مشكلة الانسجام الإثني مبكرًا، فبعد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالحكم الملكي في 1958 بوقت وجيز نشأت –تحديدًا في عام 1963– المشكلة الكردية التي امتدت لتشمل عهود أربعة رؤساء، وتعقدت في عهد الرئيس الأسبق صدام حسين لتصل إلى حد ارتكاب نظامه جرائم إبادة جماعية ضد الكرد[2]، وصورت معالجته للتمرد الشيعي ضد نظامه في الجنوب العراقي بعد غزو الكويت، على أنها استهداف طائفي لهذا المكون، لتتطور المشكلة إلى حد التدويل، وفرض مناطق حظر جوي في عام 1991،[3] نتج عنها ظهور منطقة الحكم الذاتي عند خط العرض 36 المعروف بالخط الأخضر، والتي حظيت باستقلال عن المركز وبحماية دولية، وتشكّل اليوم جغرافية إقليم كردستان العراق.

المشكلة الأبرز تمثلت في نزوع نظام الرئيس الأسبق صدام حسين –بالإضافة إلى حملات الإبادة الجماعية بحق بعض المكونات– إلى السعي للتغير الديموغرافي في حزام متنوع إثنيًّا في مناطق التماس خارج خط 36 عند منطقة الحكم الذاتي للكرد، وذلك من خلال استحداث تقسيمات إدارية تستهدف تغييرًا ديموغرافيًّا لتلك المناطق، والضلوع في

المنارة للاستشارات
www.m

الشكل دقم (2): المناطق المتنازع عليها بين إقليم كردستان والحكومة الاتحادية

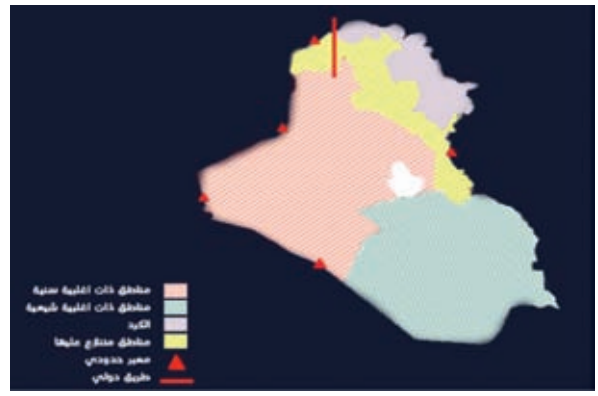

المصدر: الخريطة من إعداد الباحث بالاعتماد على بعض الإحصائيات من مركز الدراسات الدولية والإستراتيجية CISIS

عمليات ترحيل بعض القوميات وتوطين أخرى، مثّلت أصولًا تاريخية عميقة لتلك المظالم، وأدت إلى تصدع التعايش المشترك بين مكونات ذلك الخط المتنوع إثنيًا، وهو ما سيشكل أحد خطوط التوتر لاحقًا، فإذا أخذنا محافظة كركوك مثالًا نجد من خلال الشكل رقم (1) أن نسبة الكرد تقلصت لصالح حساب القوميات الأخرى، نتيجة لما عرف "بسياسة التعريب" من 48٪ في إحصاء 1957 إلى 38٪ في إحصاء 1977 لتهبط إلى 2٪ في إحصاء 1997 [4].

إلا أن مشكلة الإثنيات في العراق شهدت محطتين مثّلتا نقطة تحول في مسار التفاعل الإثني، ورسمت خطًا جديدًا لصراع إثني جديد في البلد، تمثلت الأولى في الاحتلال الأمريكي للعراق سنة 2003 والإطاحة بنظام صدام حسين، فقد كانت الهوية الوطنية لهذا البلد تتمزق، وظهر وعي إثني كبير للمكونات المختلفة، فمع أن الصراع العربي-الكردي انتهى إلا أن السلام بين الكرد والدولة العراقية بقي هشًّا ومعرضًا للانهيار.

فبعد سيطرة الشيعة على أغلب مقاليد الحكم في بغداد، وانتهاجهم سياسة طائفية ظهر صراع سني- شيعي تطور إلى مرحلة الحرب الأهلية في 2007، أما المحطة الثانية فقد كانت بسقوط الموصل بيد تنظيم داعش، إذ انهارت الدولة العراقية على نحو غير مسبوق لصالح الاتجاهات الإثنية المتصارعة، وعلى نحو بدا فيه العراق مقسّمًا فعليًّا على أساس إثني، وبدت المحطة الأخيرة تعطي انطباعًا بأن خارطة العراق الحديث بدأت تتفسخ، ولن تكون لها فرصة في الاستمرار.

بيد أن الصراع الذي أفضى إلى جموح الروح الإثنية للأطراف كافة المستندة إلى مظالم تاريخية للمكونات المختلفة- ونزوعها إلى حكم نفسها بنفسها سواء بالأقاليم الفيدرالية أم بالانفصال- سيصطدم بخطوط جيوإثنية تفضي إلى صراع إثني كبير، يجعل من مقولة التقسيم مقابل الاستقرار أمرًا مستبعدًا.

1 - خط الصدام القومي:

يتشكل في شمال العراق خط يحمل مقومات صدام قومي قادم يُعدّ أحد أعقد الخطوط الإثنية، الذي سيمثل خط التوتر الأبرز في المنطقة، وهو الشريط المتنازع عليه بين إقليم كردستان والحكومة الاتحادية فيما عرف دستوريًّا "بالمناطق المتنازع عليها"، هذا الخط -كما هو واضح في الشكل رقم (2)- يمتد غربًا من قضاء سنجار مرورًا بقضاءَي ربيعة وزمّار وأقضية تلكيف والشيخان والحمدانية في محافظة نينوى وكامل محافظة كركوك، نزولًا إلى قضاءَي خانقين والمقدادية في محافظة ديالى، وانتهاء بقضاءي بدرة وجصان في محافظة واسط شرقًا. يستوعب

المنارة للاستشارات
www.m

هـذا الخـط ٪18،5 من مسـاحة العـراق، إذ يشـمل ٪34 مـن مسـاحة محافظـة نينـوى، ومحافظة كركوك كاملة، و51،6 ٪ من محافظة ديالى، و21 ٪ من محافظة واسط[5].

يحمل هذا الحزام عوامل صراع مزدوج بين صراع اتحادي- كردي، وصراع عربي سني- كـردي، لمـا يحتويه هذا الشريط مـن مقومات لقيام مثل هذا الصراع، فهذا الحزام الجيوإثني يعـد من الحُزُم الغنية في العراق عمومًا، وعلى وجـه التحديـد أغنـى بقعة جغرافيـة للعرب السـنة والكـرد، إذ يمتـاز بخصوبـة أراضيـه الزراعيـة، حيث تتبوّأ مناطقه المرتبة الأولى في إنتاج القمح والشـعير، ويشـكل إنتاج نينوى -التـي أغلـب أراضيهـا المنتجـة في الشريط المتنـازع عليـه- ٪26 مـن إنتاج العـراق من القمح والشـعير، تليها محافظة كركوك بنسـبة ٪13، وديـالى بنسـبة ٪12 مـن عمـوم إنتاج العـراق[6]، بالإضافـة إلى خصوبـة أراضيه، فإنـه يحوي ثـروة مائية كبيرة، إذ يحتضن سـدّ الموصل أكبر سـدود العراق، ورابع أكبر سـد في الـشرق الأوسـط، تجعلـه يتحكـم بمصير الميـاه في باديـة الجزيـرة وكامـل منسـوب نهر دجلة[7].

الميـزة الأخـرى لهذ الحـزام تتعلـق بطرق المـرور والاتصـال الدوليـة، وهو مـا يضفي عليـه أهمية إسـتراتيجية كبـيرة، فكما هو مبين في الشـكل رقم (2) يتصل هذا الشريط بكل مـن تركيـا وسـوريا وإيـران، لذلك يشـكل أهمية فائقة للعرب السـنة بالدرجة الأساس، إذ بدونـه سـينقطع اتصـال جغرافيتهـم مـع تلـك الدول، ولـن تبقى لهم منافـذ دولية إلا

الشكل رقم (3): حقول النفط في المناطق المتنازع عليها

الخريطة من إعداد الباحث بالاعتماد على: Anthony H. Cordesman & Sam Khazai، Iraq in crisis، Center for Strategic and International Studies CSIS، 2014، p16.

منافـذ محدودة من محافظـة الأنبار على الأردن وسوريا والسعودية.

الضلـع الثالـث في أهميـة هذا الحـزام هو ارتباطه ببعد الطاقة، وهو ما أضفى عليه أهمية جيوسياسـية فريـدة، فبالإضافـة إلى خصوبة تربته وما يشـكله من خطوط طرق برية، فإنه يحتوي على احتياطي نفطـي هائل، فمحافظة كركوك وحدها تمتلـك 13 مليار برميل نفط مـن الاحتياطـي المؤكـد، وتنتـج 500 ألـف برميل بشكل يومي[8]، إلا أن ما يزيد المشكلة تعقيدًا -بالنظر إلى الشكل رقم (3)- ويبعث على الدهشـة هو أن جغرافية إقليم كردستان وجغرافية العرب السـنة تعد فقـيرة بمصادر النفـط وحقولـه، في الوقـت الـذي تتركز فيه مصـادر النفـط الغنيـة في هـذا الحـزام، وهذا يعنـي أن أي طـرف يتنـازل عـن هـذا الحزام يعنـي تنازلـه عـن سـلة خبـزه، وحكمه على جغرافيته أن تكـون فقيرة، ومجردة من الموارد اللازمـة للتنمية، مثل هـذا الإدراك يجعل من هذا الحزام معقدًا ومتشـابكًا، ويحمل إمكانية

المنارة للاستشارات
www.m

يبدو أن مرحلة انتهاء تنظيم داعش لن تكون المرحلة الأخيرة للصراع في المنطقة، بل يبدو أنها ستكون أمام سيناريوهات مفتوحة من الصراع الذي سيتحكم بمستقبلها في مرحلة ما بعد داعش، فالجيوإثنية التي ترسخت بشكل كبير في مرحلة التنظيم ستترتب عليها محاولات لإعادة تشكيل المنطقة بوصفها خياراً قابلاً لإحلال الاستقرار فيها

دخول الأطراف في صراع (صفري) بسبب هذا الحزام.

وما يزيد المشكلة تعقيدًا أن هذا الحزام يمتاز بالتنوع الإثني الكبير، فبالإضافة إلى العرب والكرد اللذين يشكلان المكونين الرئيسين فيه يحتضن أيضًا أقليات الإيزيديين والمسيحيين والشبك والتركمان، وهو ما يجعل أمر حسم عائديته إلى أي طرف أمرًا صعبًا، مع انعدام وجود كتلة إثنية قادرة على الحسم[9]. وللتدليل على حجم التعقيد فيه فإنه على الرغم من أن معظم مناطقه تحت سيطرة إقليم كردستان المباشرة منذ اثني عشر عامًا، وعلى الرغم من أن الدستور العراقي الدائم لسنة 2005 نص في مادته الـ140 على إيجاد تسوية نهائية لوضع هذه المناطق باستفتاء أهلها في 31 كانون الأول من عام 2007- إلا أن ذلك لم يحصل مع مرور ثماني سنوات على فوات الموعد النهائي لتسوية وضع تلك المناطق دستوريًّا، وهو ما يشير إلى أن حل وضع هذا الحزام يبدو مستبعدًا بالطرق السلمية والدستورية، ويحمل في طياته متاهة بالغة التعقيد[10].

كان التفاعل واضحًا مع ذلك الحزام بعد سقوط الموصل بيد داعش، إذ تقدمت قوات البيشمركة التابعة لإقليم كردستان لمَلْء الفراغ الناجم عن انهيار قطعات القوات الاتحادية في تلك المناطق، وتحدّث الرئيس مسعود البارزاني مرارًا عن انتهاء المادة 140، وما يعرف بالمناطق المتنازع عليها، مشيرًا إلى حسم عائديتها للإقليم، إلا أن هجوم تنظيم داعش على تلك المناطق أعادها إلى وضعها بوصفها متنازعًا عليها، وبالنظر إلى أن تضحية البيشمركة بما يزيد عن ألف قتيل وآلاف الجرحى في معاركها مع تنظيم داعش كانت دفاعًا عن تلك المناطق لا عن حدود الإقليم عند خط 36 وإلى حديث البارزاني أن الحدود رُسِمت بالدم- نتبيّن أهمية هذه المناطق في المُدرَك الكردي، وإمكانية نشوب صراع (صفري) عليها بين الأطراف المختلفة[11].

2-خط الصدام الطائفي:

الصراع الطائفي المتصاعد في العراق بعد 2003 معرض للتفاقم، فإذا تحقق استقلال الجماعات الإثنية، وهو الحاصل فعليًّا بعد ظهور تنظيم داعش، واستمر الوضع على هذه الوتيرة فإن حُزُمًا طائفية ستتشكل لتمثل أساسًا مستقبليًّا لاستدامة الصراع الطائفي فيه، فإلى الشرق منه تعد محافظة ديالى مركزًا للصراع القومي والصراع الطائفي على حد سواء، فبالإضافة إلى مطالب الكرد بـ51 ٪ من المحافظة، يسعى الشيعة إلى تغيير ديموغرافي لهذه المحافظة بالرغم من كونهم ليسوا الأغلبية فيها، ويعدّها السنة محافظة عربية سنية أصيلة، وتأتي أهمية ديالى من أهمية العاصمة بغداد، إذ تحتضنها من شمالها الشرقي وحتى جنوبها الغربي، وكما هو مبين

المنارة للاستشارات
www.m

في الشكل رقم (4) فهي تتكامل مع حزام بغداد الجنوبي وشمال بابل (السُّنِّي) لتصل إلى عامرية الفلوجة، وبذلك فإنها تعزل الشيعة عن بغداد بالرغم من نسبتهم الكبيرة بداخلها، وتحسم عائديتها للسُّنة إذا ما بقيت ديالى محافظة سُنية، والأهمية الأخرى لها تنبع من كونها محاذية لإيران، وتهدد مستقبل نفوذها على بغداد، ومن ثَمّ فديالى تحوز أهمية فائقة في المدرك الإستراتيجي لإيران وحلفائها في العراق[12].

خط التوتر الآخر الذي سينشأ هو شمال بغداد، فالأخيرة التي تعد قطب الصراع لكل الأطراف، وبالرغم من تعرضها لمحاولة تغيير ديموغرافي طائفي كبير أيام الحرب الأهلية في 2007، إلا أن العاصمة بغداد المختلطة بين السنة والشيعة مسورة بحزام سُنّي كما واضح في الشكل(4)، هذا الحزام السُّني يهدّد مستقبل السيطرة الشيعية على العاصمة، لذا فإن خطًّا آخر سينشأ ليخترق ذلك الحزام، وهو بضم قضاءي بلد والدجيل الشيعيين التابعين لمحافظة صلاح الدين إلى بغداد، وهو ما ابتُدئت المطالبة بإدراجهما أيضًا على أنهما منطقتان متنازع عليهما بين بغداد وصلاح الدين، يضاف أيضًا إلى هذا الخط بؤرة توتر أخرى ستنشأ متمثلة بقضاء سامراء السُّني، فهذا القضاء تنبع أهميته من كونه يحوي مرقدين للأمامين علي الهادي والحسن العسكري، وهما الإمامان العاشر والحادي عشر من الأئمة الاثني عشر المقدسين لدى الشيعة الاثني عشرية، الذين يمثلون الغالبية الساحقة لشيعة العراق، والذي أدّى تفجير قبّتَي مرقديهما في عام 2006 إلى اندلاع حرب أهلية كادت تودي بالبلد، ومن ثَمّ فإن

الشكل رقم (4): خطوط التوتر الطائفية المقبلة في العراق

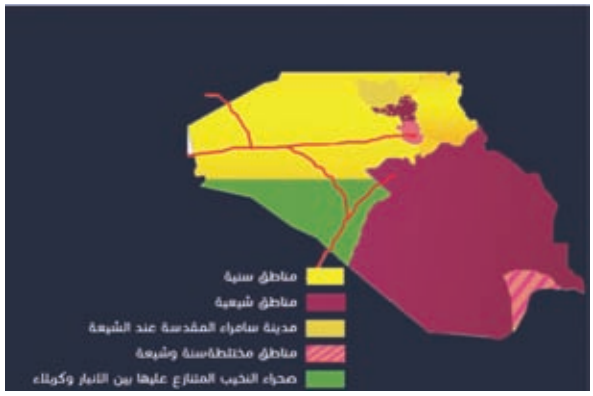

الخريطة من إعداد الباحث بالاعتماد على بيانات خاصة

سامراء ستكون بؤرة تغذي الصراع الطائفي المستقبلي بحجة حماية المقدسات[13].

إلى الجنوب ترتسم خطوط توتر مستقبلية أخرى، من ذلك قضاء النخيب الذي أدرج منطقة متنازع عليها بين كربلاء والأنبار بالرغم من عائديته التاريخية والجغرافية للأنبار، أهمية هذا القضاء هو أنه يمثل منطقة عبور مهمّة، إذ يتصل بالمملكة العربية السعودية، ويحتوي منفذ العراق البري إليها، ويتصل بالأردن، لذا فإن حصول أي من الطرفين على هذا القضاء يعني عزل الطرف الآخر عن الاتصال بالأردن والسعودية، كما أنه يمثل ظهيرًا لمحافظة كربلاء المقدّسة لدى الشيعة، وبحصولهم عليه سيؤدي إلى تأمين هذه المحافظة التي تبدو مكشوفة أمام هذا القضاء، ومن ثَمّ فإن هذه المنطقة ستعد إستراتيجية للطرفين، لكونها منطقة أمنية لدى الشيعة، ومنطقة عبور مهمّة كما هو واضح في الشكل رقم (4)، ويمثل قضاء الزبير جنوب غرب البصرة إحدى المناطق

المنارة للاستشارات
www.m

الشكل رقم (5): التوزيع الاثنوغرافي في سوريا

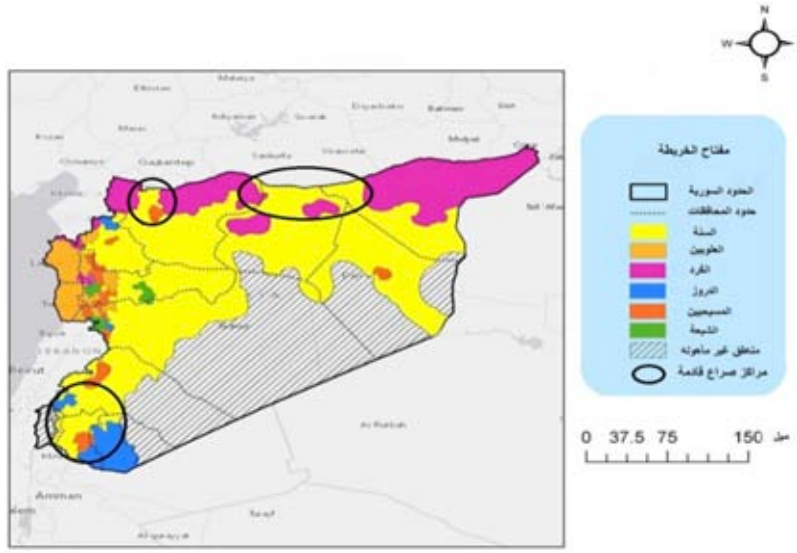

المصدر: Eliott Rousseau، The Construction of Ethnoreligious Identity Groups in Syria: Loyalties and Tensions in the Syrian Civil War، 2014، Bridgewater State University، p11/ ترجم الوثيقة وعدل عليها الباحث

التي تحمل إمكانية صراع طائفي، فالقضاء ذو الغالبية السُّنية الأصيل تنبع أهميته في كونه بوابة العراق في أنه يفصل شيعة العراق عن الخليج إلا من ممر مائي صغير، ومناطق صحراوية غير مأهولة، كما أنه غني بالنفط، إذ يحتوي على حقلين يصنفان على أنهما (حقول فوق العملاقة)، وهما حقل الرميلة وحقل الزبير، ولهذا السبب يتعرض هذا القضاء لحملات تغيير ديموغرافية كبيرة، من ذلك تهجير عشيرة السعدون الممنهج، وكذلك التهجير الطائفي في 2007[14].

يأتي التفاعل الشيعي مع هذه الحُزُم مبكرًا، إذ اضطلعت المليشيات الشيعية في تنفيذ عمليات تطهير منظم لمناطق جنوب ديالى السُّنية، وذلك من أجل فصل ديالى عن حزام بغداد الجنوبي وشمال بابل السُّني، وبعد بروز تنظيم داعش اندفعت المليشيات الشيعية تحت غطاء فتوى المرجعية الشيعية العليا فيما عرف بالجهاد الكفائي، لتشكل الحشد الشعبي الذي ضم الكثير من تلك المليشيات التي اندفعت باتجاه أقضية بلد والدجيل وسامراء، بحجة حماية المقدسات، وحشدت الشارع الشيعي لذلك، كما أنها اندفعت باتجاه قضاء النخيب بعد سقوط أجزاء من محافظة الأنبار بحجة حماية كربلاء، إلا أن تحركها الأبرز والذي كان بمشاركة إيرانية مباشرة تمثل في محافظة ديالى التي تسيطر فيها المليشيات على أجزاء واسعة بشكل مباشر، فيما يبين حجم الإدراك الشيعي والإيراني لأهمية تلك المناطق، وما يمكن أن تمثله من خطوط صدام مستقبلية.

المنارة للاستشارات
www.m

ثانيًا: سوريا

إن الصراع الذي اشتعل خلال السنوات الأربع الأخيرة، بين النظام وقوى المعارضة الساعية إلى إسقاطه، وما رافقه من تفاعل إقليمي ودولي أحال البلد ركامًا، ومزّق النسيج الاجتماعي فيه. وقد تطور الأمر على نحو مأساوي، إذ لا يمكن لفئة أن تهزم الفئات الأخرى، وهذا لن يفتح الطريق أمام التوصل إلى تسوية سياسية، فحتى سقوط الأسد لن ينهي الصراع، إذ يمكن لجميع الأطراف الاستمرار في القتال، ومن المرجّح أن يفعلوا ذلك لتحقيق غاياتهم الخاصة، فما بدأ على شكل معارضة ضد الأسد تحوّل بشكل مدروس من النظام إلى حرب طائفية وجودية، وليس هناك من فئة تعتقد أن بإمكانها البقاء في سورية بقيادة أعدائها، لذا فإن ذلك صار يعطي انطباعًا أن سوريا نفسها لا يمكنها البقاء بجغرافيتها الحالية[15].

هذا التفاعل الكبير مع الصراع في سوريا أفرز واقعًا متمثلًا في تحول مناطق النفوذ إلى دويلات أمرًا واقعًا، ومن المرجح أن يستمر ذلك مستقبلًا مع انسداد أفق حل الصراع هناك، من ذلك إقامة دويلة كردية في شمال شرق البلاد، ودويلة (شيعية علوية) تسيطر على الساحل السوري المطل على البحر المتوسط وعلى كلٍّ من حمص وحماة أو أجزاء منهما، ودولة سنية تسيطر على الرقة ودير الزور وحلب وجنوب البلاد، ولا يستبعد إقامة دويلة درزية جنوب شرق سوريا مستقبلا[16].

وقد بات من المؤكد أن إطالة أمد الصراع سيؤدّي في النهاية إلى بلقنة سوريا، بين المناطق التي تسيطر عليها الحكومة العلوية في الغرب، والمناطق التي يسيطر عليها السنة في الشرق، والكرد في الشمال، لكن ولسوء الطالع فإنه لا الاتجاهات المذهبية ولا القومية ولا حتى الدينية منظّمة، فسوريا لوحة فسيفساء

بات من المؤكد أن إطالة أمد الصراع سيؤدّي في النهاية إلى بلقنة سوريا، بين المناطق التي تسيطر عليها الحكومة العلوية في الغرب، والمناطق التي يسيطر عليها السنة في الشرق، والكرد في الشمال

اجتماعية أكبر بكثير من الحدود او الجبهات المتحولة، وهذا يعني أنه ستكون هناك حاجة ملحّة إلى الجماعات والأطراف المختلفة إلى التطهير العرقي لخلق جيوب ذات توجه محدّد بغية إعادة رسم خريطة البلد، وعلى نحو يعني أن هناك مزيدًا من الثأر واستمرارًا للصراع بأدوات وغايات مختلفة[17].

1 - خط الصدام القومي والطائفي:

إن أول الخطوط التي تحمل احتمالية نشوب الصراع القومي في سوريا بين العرب والكرد هو أن حلم الكرد في تحقيق الحكم الذاتي أو الانفصال، وكما هو مبين في الشكل رقم (5) سيصطدم بكتلة بشرية وجغرافية كبيرة تحول بين اتصال مَواطن وجود الكرد في سوريا، ويتضح كذلك من الشكل صعوبة ربط المناطق الكردية في قامشلو وديريك شمال شرق سوريا بالمناطق الكردية في كوباني وعفرين شمال غرب البلاد، هذه الكتلة يقطنها العرب السنة، ومن ثَمّ فإن هذا الربط

المنارة للاستشارات
www.m

الـذي سـيضم مناطق شـمال الرقة سـيحمل إمكانيـة حـدوث صـدام وصراع عـربي- كـردي، والسـبب الـذي سـيزيد مـن فرص انـدلاع النزاع بالإضافـة إلى تركيبتها القومية هـو خصوبة أراضيها الزراعيـة، بالمقارنة مع بقية مناطق السـنة في سـوريا، إضافـة إلى أنها تعدّ منفذًا للسـنة في سـوريا نحو تركيا، ومن دونـه سـيجد السـنة أنفسـهم محاصريـن من الاتصال بالعـالم الخارجي إلا مع العراق، كما أن معارك تل أبيض والاتهامات التي وُجِّهت إلى حمايـة الوحـدة الشـعبية YPK وPYD بتهجـير العـرب من ذلك الخـط يعطي المثال للحالـة التـي يمكـن أن يكـون عليهـا وضع تلـك المناطق بعد محـاولات إعادة التشـكيل أو الاسـتقلال الذاتي للمكونـات المختلفة في سوريا[18].

بالإضافـة إلى الصراع القومي المحتمل في سـوريا، فإن صراعًا طائفيًّا يبدو حدوثه أكثر احتـمالًا مـن أي صراع آخر، فقـوات النخبة التـي تفتـك بالمدنيين السـوريين مـن الطائفة العلويـة، وقد نجح النظـام في إضفاء الصبغة الطائفيـة على الصراع الدائر في سـوريا، ومن المؤكَّد أن العلويين والشيعة سيفكرون مليًّا في حماية أنفسهم من خلال الاستقلال، أو حكم دويلة في مناطق السـاحل التي يقطنونها حتى لو انهار نظام بشـار الأسـد، وبدافـع الانتقام سـيتجه السـنة في سـوريا لضـم السـاحل وإفشـال الدولـة العلويـة، لكـن هـذا ليـس السـبب الوحيد والرئيس في الصراع الطائفي الذي سـيحتدم، فالعلويـون -كما هو مبين في الشـكل رقم(6)- يقطنون المناطق الساحلية التي سـتحرم السُّنّة في سوريا من الحد المائي، كـما أنهـا توجـد في المـدن المتطـورة وأماكـن الزراعة وهطول الأمطار، على عكس الشرق الـذي يبـدو صحراويًّـا، لذلـك فـإن صراعًا طائفيًّا سينشـب بدافع الانتقام إذا ما اسـتقل العلويـون أو فكروا في حكـم مناطقهم وعلى نحو واسع[19].

2 - وضع مناطق الأقليات:

يدخـل إلى نسـيج الأزمة السـورية المعقد والمتشابك وضع الأقليات واحتمال انخراطها في الصراع في سوريا، فوفقًا لتقديرات أوردتها الـــCIA فـإن الأقليـات في سـوريا تتـوزع عـلى الشـكل الآتي: 13٪ شـيعة وعلويـون وإسـماعيليون، و10٪ مسـيحيون بمختلف طوائفهـم، و3٪ دروز، مقابـل 74٪ مـن المسلمين السُّنّة[20]. بعيدًا عن الأقلية الشيعية والعلويـة التـي انخرطـت بشـكل رئيـس في الـصراع، تجـد الأقليتـين الدرزية والمسـيحية نفسـهما في وضع سـلبي للغاية من الأحداث التي تشـهدها البلاد وتحدد مصيرهما، بسبب اخـتراق الثـورة في سـوريا، وبـروز التيـار المتطـرف لـدى المعارضـة الـذي قد يشـكل تهديدًا وجوديًّا لهـا، ودليلًا على ذلك التهديد مـا قيل عن جبهـة النصرة من أنهـا قتلت 23 درزيًّا في إحدى قرى إدلب، وقد استغل نظام الأسـد ذلك، فأظهر نفسـه في موضع الدفاع عنهـا منـذ انـدلاع الأحداث في سـوريا، وفي الوقـت الـذي لا تجد هـذه الأقليات بـدًّا من حمايـة وجودها، فإنها تضع نفسـها في موضع المـدان بوقوفهـا إلى جانب النظـام رغم عدم مناصرتهـا لأفعالـه ضـد الأكثريـة السُّـنية في البلـد، وهـذا الحـرج الـذي يميـز وضعهـا سـيضعها أمام تهديد وجودي آخر في الوقت

المنارة للاستشارات
www.m

الـذي تكون فيه الجغرافيا الوطنية تتمزق على نحو مخيف[21].

الخيـار المفضل الذي يرجـح انتهاجه من قبل الأقليات، هو تبنيها خيار إنشاء دويلات خاصة بها كما في حالة الدروز، أو الانضمام إلى مظلة دويلة أقوى كما في حالة المسـيحيين[22]، وإذا مـا قررت تلـك الأقليـات التحالف مع الأسـد والانضـواء في دولـة العلويـين -كـما هـو واضـح في الشـكل رقم(7)- فـإن ذلك سـيجعلهم في تحالـف مـع العلويـين ضـد الأكثرية السُّنية؛ لأن هذه الخريطة ستؤدي إلى قضـم محافظة درعا السُّـنية وإغلاقها للطريق الدولي الذي يصل السـنة بالأردن، فضلًا عن تعزيز السيطرة العلوية على العاصمة دمشق، وهـو خيـار لا يبـدو محتمـلًا لـدى الـدروز، وإن كان أكثـر احتـمالًا مـع المسـيحيين- أو أن تقـوم بإنشـاء دويلات خاصـة بها، كما هو محتمل بالنسبة للدروز، لكن ذلك أيضًا يخلق مشكلة بالنسبة للأقليات، إذ إنها غير مجموعة في جيـوب محددة، ففي حالة الدروز -كما هو واضـح في الشـكل رقـم (4)- يفصـل بـين الدروز في السويداء -وهي منطقة تمركزهم- وفي القنيطرة كتلة سُنّية، وإذا ما سعى الدروز إلى بناء كيان خاص بهم فإن ذلك سـيصطدم بمحافظـة درعـا السُّـنية، وهـو مـا سـيخلق صدامًا محتملًا .

ثالثًا: التداعيات على منطقة الشرق الأوسط

إن تأثـير التفاعلات التي تجري في العراق وسوريا على منطقة الشرق الأوسط بشكل عام تـأتي من الأهمية الإسـتراتيجية الفريدة لهذين البلدين في قلب المنطقة، فالعراق (يتموضع

الشكل رقم(6) الأراضي الزراعية والمستخدمة في سوريا

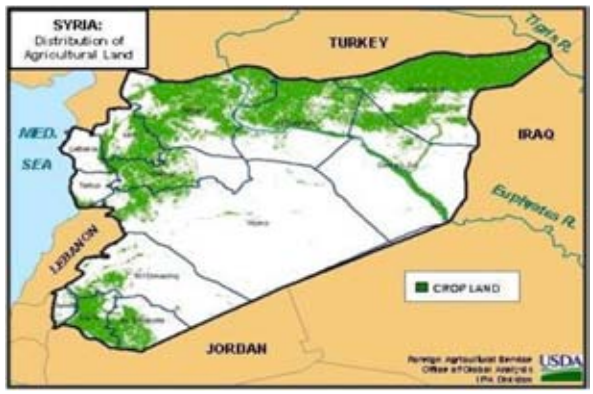

المصدر: Syria%2c+population+density+map&id=7CD1C1B0A2=1F0A23278E0CFE65CA71DA2FCF4C6A&FORM=IQFRBA

على الحزام الجيوسـياسي للمنطقة، ويقع على رأس الخليـج العـربي، ويتمحـور عـلى قلب إمـدادات الطاقة الرئيسـة في العالم، ويشـكل مفتـاح المنطقة الجيوسـياسي والجيواقتصادي والجيوإثنـي[23]. أما سـوريا فإنها تتبوّأ موقعًا فريدًا يؤثر بشكل مباشر في ثلاث دول مهمة، هـي: لبنـان وفلسـطين والعـراق، فضلًا عن انفتاحها على الجهـة الجنوبية لتركيا، وأهميتها المحورية لإيران[24].

وبالإضافة إلى الأهمية الإسـتراتيجية فإن النسـيج الاجتماعـي المعقـد لهذيـن البلديـن يجعـل دول الإقليـم تتفاعـل بشـكل كبير مع الصراعـات الدينامية فيهـا، وتؤثـر بشـكل مباشر فيها، فبعد الانهيار الذي شهده العراق بعد 2003 تفاعلت دول الإقليم بشكل كبير مـع أحداثـه الداخليـة، كما عـززت النعرات الطائفيـة والقوميـة فيـه، ودخلـت الفواعـل الإقليمية المختلفة مع حالة الصراع في سوريا بشـكل كبـير، إلى الدرجـة التـي تحولـت بها سـوريا إلى بؤرة استقطاب إقليمي حاد نتيجة

المنارة للاستشارات
www.m

الشكل رقم (7): تقسيم مقترح لسوريا يجمع الأقليات المسيحية والدرزية مع العلويين

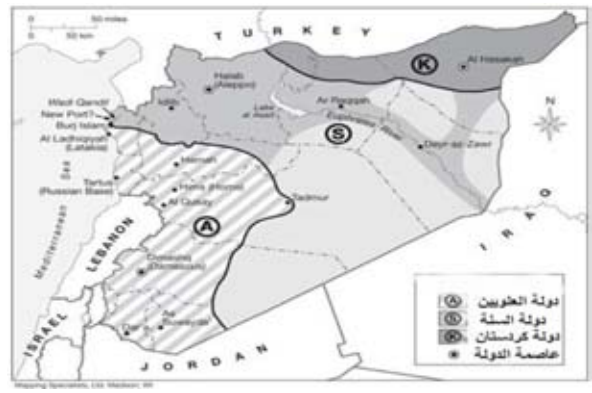

المصدر: Eliott Rousseau، The Construction of Ethnoreligious Identity Groups in Syria: Loyalties and Tensions in the Syrian Civil War، 2014، Bridgewater State University، p52

التأثر الإثني والقرب الجغرافي، وهو ما أدخل المنطقة في حالة عدم استقرار على نحو غير مسبوق[25].

بالإضافة إلى أن تصاعد المتغير الإثني يؤدي إلى زعزعة الاستقرار في دول الخليج العربية؛ فالكويت والمملكة العربية السعودية والبحرين دول تمتلك أقليات شيعيه كبيرة، باستثناء البحرين التي يمثل الشيعة فيها نسبة كبيرة، إذ إن تلك الأقليات ستتأثر بشكل أكبر بالصراع المتصاعد في المنطقة، ولربما انخرطت في هذه المعادلة، وهو ما سينعكس بشكل كبير على استقرار دول الخليج ويعرضه للعطب، هذا الأمر سيترك تداعيات مهمّة على الطاقة العالمية، لأن الخليج يمثل واحدًا من أهم رئات العالم من حيث مصادر الطاقة، وأي زعزعة فيه سيترك آثارًا سلبية في اقتصاديات كبيرة، قد تترك انعكاسات سلبية على الاقتصاد العالمي بشكل مباشر.

من شأن بروز خطوط جديدة للصراع في العراق وسوريا أن ينعكس على الحالة الصراعية للبيئة الإقليمية على نطاق أوسع، فالصراع الحالي في المنطقة أفرز صيغ توازنات وتحالفات إقليمية على أساس طائفي، ومن شأن بروز خطوط جديدة تؤمن استدامة الصراع إلى أن يشكل توازنات دينامكية مضادة تزيد الاستقطاب في المنطقة، وهو ما سيؤجج النعرات الطائفية والقومية في المنطقة، وتمدد مخرجات الصراع الطائفي والقومي لتمسّ العمق الاجتماعي لكثير من دولها، فلبنان واليمن والسعودية والبحرين مناطق رخوة لتمدد الصراع إليها، كما سينعكس على الاستقرار في دول مثل تركيا ومصر والخليج عمومًا، ومن شأن ذلك أن يؤدّي إلى هشاشة دول المنطقة وقابلية اختراقها، وأن تكون معرضة للتفاقم على نحو كبير[26].

كما أن من شأن تفكك دول مثل العراق وسوريا وبدرجة لاحقة لبنان واليمن وليبيا وبروز خطوط جديدة لاستدامة الصراع أن يؤدي إلى تغيير ميزان القوى في النظام الإقليمي الفرعي في الشرق الأوسط، وتحول دول الهامش إلى قلب المركز في معادلات التوازن في المنطقة، ولكن النتيجة الأبرز هي أن بروز مناطق قابلة للصراع بشكل مستمر سينتج مناطق دائمة للإخفاق، والتي تكون بيئة خصبة لصناعة التطرف الذي لن يهدد الاستقرار الإقليمي لدول المنطقة فقط بل ويتطور ذلك ليهدد المجتمع الدولي برمته، وهو ما سيعني أن المنطقة ستكون معرضة لتدخل دولي مستمر ينتج أبعادًا على شكل المنطقة العام[27]، وسيعزز ذلك استمرار النزاع في بؤر التوتر هذه، ويؤدي إلى حركة

المنارة للاستشارات
www.m

تغيير ديموغرافي عالمي، وحركة هجرة جماعية، وما تشهدها الدول الأوربية من هجرة كثيفة من العراق وسوريا دليل على ذلك. ومن شأن استمرار النزاع أن يؤدي إلى زيادة وتيرة تلك الهجرة التي ستنعكس ديموغرافيًّا على الدول العربية على وجه التحديد، وهو ما سيشكل تهديدًا لها، ومن ثَمّ ستهرع إلى مواجهته من خلال التدخل المباشر لقطع أسبابه.

الخاتمة:

الصراع الذي يشهده الشرق الأوسط ليس إلا مرحلة متقدمة من مراحل طبوغرافية الدولة التي تعاني إخفاق الاندماج على أساس التقسيم القديم للمنطقة، والذي غذَّته عوامل متعددة، جعلت العودة به إلى نقطة الصفر أمرًا متوقعًا.

استدامة الصراع الحالي في المنطقة سيضمن بلقنة الشرق الأوسط بحثًا عن الاستقرار، بعد تداعي منظومة الدولة، وإخفاق النظم الحاكمة في أداء وظائفها الطبيعية، ويُعدّ حالتَي العراق وسوريا الأقرب إلى تحقيق ذلك، بيد أن أول ما يُروَّج على نحو واسع هو التقسيم للأمر الواقع الحاصل لمناطق النفوذ الإثني في هذين البلدين إنهاءً للصراع، ولكن هذه الدعاوى تتجاهل حقيقة تلك الخطوط الجيوإثنية المفعمة بالتنوع الإثني، التي ستشكل أساسًا منطقيًّا لانطلاق موجات أعنف من الصراع القومي والطائفي والديني إلى حد كبير.

تلك الخطوط الإثنية معززة -وعلى نحو كبير- بعوامل أخرى، كعنصر الزراعة، وعنصر الطاقة، ومميزات الموقع، وخطوط المواصلات... وهو ما يضفي على الصراع أهمية إستراتيجية تمثل مصلحة ثابتة لكل كتلة إثنية، لا يمكنها التنازل عن تلك الخطوط، وهو ما يعني دخول الأطراف الإثنية المختلفة في صراع إثني، سرعان ما ستمتد مخرجاته إلى عموم المنطقة.

كما أن التفاعل الإقليمي الذي سيأخذ طابع الصراع من أجل البقاء سيؤثر بوتيرة متصاعدة في الوضع الديموغرافي للمنطقة وتأثرها بمخرجات ذلك الصراع بشكل كبير.

الهوامش والمراجع:

1- D-IQ Meeting، European Parliament، IRAQ: The Situation of Ethnic and Religious Minorities، Unrepresented Nations and Peoples Organization، Brussels، 20 /1 /2013، p1.

2- مسعود البارزاني، البارزاني والحركة التحررية الكردية، ج2، ط2، كاوا للنشر والتوزيع، أربيل، 1997، ص107.

3- استند الحظر الجوي إلى قرار مجلس الأمن 688 في 5 نيسان 1991، ص ص29-30.

4- ليام أندرسن وغاريث ستانسفيلد، أزمة كركوك السياسة الإثنية في النزاع والحلول التوافقية، ترجمة: عبد الإله النعيمي، ط 1، دراسات عراقية، بغداد، 2009، ص86 .

5- خليل إسماعيل محمد، المنطقة المتنازع عليها بين الحاضر الملتهب والمستقبل المجهول، مكتب الفكر والتوعية للاتحاد الوطني الكردستاني، السليمانية، 2007، ص17.

6- تقرير إنتاج الحنطة والشعير للعام 2013، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط ، ص1.

7- ليليان يعقوب متي، تأثير بحيرة سد الموصل على مناخ مدينة الموصل قبل وبعد الإنشاء، مجلة هندسة

المنارة للاستشارات
www.m

الرافدين، المجلد18، الإصدار4، جامعة الموصل، 2010، ص23.

8- وزارة النفط العراقية : https: // www.oil.gov.iq/index.php?name=Pages&op=page&pid=29

9- للمزيد عن النسب للقوميات والإثنيات في المناطق المتنازع عليها مع أخذ محافظة نينوى أنموذجًا ينظر: قصي رياض كنعان، التوزيع الجيوإثنوغرافي في محافظة نينوى، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الموصل، كلية الآداب، قسم الاجتماع، 2005، ص ص125-135.

10- نصّت م/ 140 من دستور جمهورية العراق 2005 على: "ثانيًا : المسؤولية الملقاة على السلطة التنفيذية في الحكومة الانتقالية والمنصوص عليها في المادة (58) من قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية تمتد وتستمر إلى السلطة التنفيذية المنتخبة بموجب هذا الدستور على أن تنجز كاملة (التطبيع، الإحصاء، وتنتهي باستفتاء في كركوك والمناطق الأخرى المتنازع عليها لتحديد إرادة مواطنيها) في مدة أقصاها الحادي والثلاثون من شهر كانون الأول سنة ألفين وسبعة" .

11- قناة روداو الفضائية: / http: / /rudaw.net arabic /kurdistan /101220142

12- انظر عن الأهمية الإستراتيجية للمنطقة السنية في العراق: حسام محمد حسن بوتاني، تداعيات الثورات العربية على العراق في ضوء التوازن الإستراتيجي الإقليمي الجديد، مجلة قضايا إستراتيجية، العدد1، مركز الموصل للثقافة والعلوم، ص133.

13- Anthony H. Cordesman &Sam Khazai، Violence in Iraq: The Growing Risk of Serious Civil Conflict، Center for Strategic and International Studies CSIS ، 2013، p p 18-23.

14- مقابلة خاصة أجراها الباحث مع نائب عن البصرة (فضّل عدم الكشف عن اسمه)، مجلس النواب العراقي، بغداد، 9/ 4/ 2014.

15- Brian Michael Jenkins، The Dynamics of Syria's Civil War،rand، 2014،p12.

16- Andrew M. Liepman &(Other) ، Alternative Futures for SyriaRegional Implications and Challenges for the United Stat ، rand ،2014، p 3.

17- Brian Michael Jenkins،Op.cit، p 18.

18- قناة الجزيرة الفضائية: http: // www.aljazeera.net /news / 2015/ 7/ 1/reportsandinterviews

19- Anthony H. Cordesman، Syria and the Least Bad Option: Dealing with Governance، Economics، and the Human Dimension ، Center for Strategic and International Studies CSIS، 2014، P 9 .

20- Central Intelligence Agency CIA، The Woled Factbook :https: / /www.cia.gov /library /publications /the-world-factbook /geos /sy.html.

21- Akram Al-Bunni، The Syrian Revolution and Future of Minorities، Arab Reform iniatiative،p2.

22- Ibied، p 3.

23- حسام محمد حسن بوتاني، المصدر السابق، ص121.

24- المصدر نفسه، ص122.

25- مروان قبلان، المسألة السورية واستقطاباتها الإقليمية والدولية: دراسة في معادلات القوة والصراع على سورية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2014، ص ص20-21 .

26- Mathew J. Burrows، Middle East 2020: Shaped by or Shaper of Global Trends?، Atlantic Council ، Washington، DC-10، 2014، p p 9 .

27- David Rothkopf، Operation Charlie Foxtrot:The entire Middle East is at war right now، and the Obama administration's strategic incoherence is aiding and abetting the chaos، Foreign Policy : http: / /foreignpolicy.com /2015 /03 /27/ operation-charlie-foxtrot-middle-east-yemen-syria-saudi-obama

المنارة للاستشارات
www.m